نساء صوفيات

١ – رابعة بنت إسماعيل

للأستاذ فوزى عرفة

رابعة بنت إسماعيل الشامية أو رابعة فى بعض الأقوال هى زوجة أحمد بن أبى الحوارى وزوجها أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى ، واسم أبى الحوارى ميمون من أهل دمشق صحب أبا سليمان الدارانى وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الغزاوى وبشير بن السرى وأبا عبد الله النباجى وغيرهم من المشايخ – رضى الله عنهم أجمع – وله أخ يقال له المولى بن أبى الحوارى يجرى مجراه فى الزهد والورع وابنه عبد الله من الزهاد وأبوه كان من العارفين والورعين فبيتهم بيت الورع والزهد . مات سنة ثلاثين ومائتين . (مناقب الأبرار وشعار الأخيار للجهنى) .

ومعنى هذا أن رابعة بنت إسماعيل عاشت فى بيئة متدينة زاهدة من ناحية زوجها أما أصلها فيكاد يكون مجهولا فلسنا نعرف من اسم أبيها سوى أنه كان يدعى إسماعيل وأما شهرتها فالغالب عن نسبتها إلى زوجها وتكاد تجمع الكتب التى ذكرتها على إغفال هذه النقطة الهامة فيقول صاحب كتاب « سير السالكات المؤمنات الخيرات » أبو بكر الحصنى « ومنهن رابعة بنت إسماعيل زوجة أحمد بن أبى الحوارى خادم أبى أبى سليمان الدارانى الصوفى رضى الله عنهم » ويقول صاحب مرآة الزمان « ابن الجوزى « عامة الرواة على أن اسمها رابعة وكانت فى العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة بل أبلغ » ويقول عبد الرحمن الجامى فى كتاب « نفحات الأنس من حضرة القدس » « رابعة الشامية رحمها الله تعالى هى زوجة أحمد بن أبى الحوارى » . وهكذا تجمع المصادر التى تتحدث عنها على ذكر اسم زوجها دون التحدث عن أبيها وأهلها .

ونحن نعرف عن زوجها أنه كان خادم أبى سليمان الدارانى ومن هذه النقطة يمكن لنا أن نحدد المعالم الرئيسية التى أثرت فى رابعة بنت إسماعيل . فأبو سليمان الدارانى كان كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع وتجمع الكتب التى تتحدث عنه على أن تجعل أحمد بن أبى الحوارى زوج رابعة محدثاً عنه . وأما تصوف الدارانى فقد امتاز بما يلى:

مطالبته بنظافة القلب وإيمانه بالفتح فيقول : « إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه مالم يفتح له وهو قائم يصلى » ووجدانه اللذة فى التعبد والزهد والجوع فكان يقول : « إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فعليك بالجوع ثم اسألها وذلك لأن الأكل يغير العقل » وكان يغالى فى ترك الشهوات مجافياً لكل مايشغله عن الله فيقول : « ما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال أو ولد فهو عليك شئوم » وقد امتنع عن الزواج انتظار المدخر الحور ، قال : « نمت عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول لى : تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام » وهكذا لن نتعجب عندما نرى هذه الخصائص وقد أخذتها رابعة بنت إسماعيل فأثرت فى حياتها وفى طريقتها فى التصوف.

فهى فكانت تؤمن بنظافة القلب حتى يمتلىء بذكر الله سبحانه وتعالى : دعاها زوجها يوما فلم تجبه ثم بعد مدة أجابته وقالت إنما منعنى أن أجيبك أن قلبى قد امتلأ فرحا بالله فلم أقدر أن أجيبك » .

ويبدو أنها كانت غنية إذ يذكر الحصنى فى كتاب « سير السالكات » ما يلى على لسان زوجها « كان معها سبعة آلاف درهم أنفقتها على » ويذكر مايلى : كانت « تقول: لست أحبك حب الأزواج إنما أحبك حب الإخوان وإنما رغبت فيك رغبة فى خدمتك وإنما أحب أن يأكل مالى مثلك ومثل إخوانك وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كله يا سيدى فما نضجت إلا بالتسبيح . وقالت . لست أستحل أن أمنعك نفسى وغيرى . اذهب فتزوج ! فتزوجت ثلاثا فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك » .

وهكذا تبدو لنا فى صورة المرأة الغنية التى تزوجت فامتلأ قلبها بحب الله تعالى فخشيت أن يشغل قلبها شاغل من شواغل الحياة الدنيا فانقطعت إلى الله تعالى إلا أنها تزينت بأريحية كريمة فربما كان دافعها إلى الزواج فقر زوجها لتحفظ عليه ماء وجهه أو ربما يكون دافعها إلى الزواج حبها لمعاشرة هذا السيد الكريم . ومهما يكن الدافع فإن فيما أسلفنا من نصوص يبين لنا أنها حفظت وده ورضيت بسماحة نفس أن تهبه زوجات وكانت تقوم بخدمة هؤلاء الزوجات الثلاث وتصرف عليهن من مالها مشاركة لا استعلاء . ولعل هذا هو السبب الذى جعل ابن الجوزى يقول فى مرآة الزمان : « كانت فى العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة ، لا بل أبلغ » فهاهنا التفضيل ينظر إليه من ناحية ميلها إلى التصوف وهى غنية واحتقارها للمال وهو بين يديها وخوفها من الله تعالى خوفا ملك عليها حسها ووجدانها .

وكانت تؤمن بالفتح قال أحمد ابن أبى الحوارى : قالت لى رابعة : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوىء عمله فتشاغل به دون خلقه » . (صفة الصفوة لابن الجوزى) قال وكانت تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون وربما رأيت الحور العين يسترون منى بأكمامهن (سير السالكات) ولهذا يروى عنها صاحب مرآة الزمان ما يلى : قال أحمد بن أبى الحوارى يوما كان عندها طشت قالت : ارفع هذا الطشت لأنى أرى أن الأمير هارون مات فبعد تفحص تحقق أن هارون الرشيد مات ذلك النهار .

وأما وجدانها اللذة فى التعبد والزهد والجوع فذلك ما تجمع عليه الكتب التى ذكرتها . يقول الشعرانى فى الطبقات الكبرى : « كانت تقوم من أول الليل إلى آخره وتصوم الدهر وتقول ما مثلى يفطر فى الدنيا » وكانت تذكر الله تعالى حتى فى أكلها . روى عنها زوجها هذه الرواية فقال . جلست آكل فجعلت تذكرنى فقلت دعينا بهذا طعامنا بطعامنا فقالت : « ليس أنا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة » ثم قال : قالت لى : إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى وإنى لأرى ذراعى قد سمن لأحزن » ووصفها زوجها فقال : « كنت إذا نظرت إلى وجهها ورقبتها فأحزن لذلك وكنت إذا أردت قربها نهاراً تقول : أسألك بالله تعالى لا تفطرنى اليوم وإذا أردتها بالليل تقول : أسألك بالله لما وهبتنى لله عز وجل هذه الليلة » وقال لها وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا إنما أقوم إذا نوديت .

وأما أحوالها فكانت مختلفة : مرة يغلب عليها الحب ومرة يغلب عليها الأنس ومرة يغلب عليها الخوف فكانت فى حال الحب تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا لسواه فى قلبى نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فؤادى ما يغيب

وفى حال الأنس تقول :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وفى حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مبلغى ... أللزاد أبكى أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى فيك أين مخافتى

* * *

إلا أن ما يميز رابعة بنت إسماعيل ويجعلها ذات قيمة فى تاريخ التصوف هو تلك الصفة الغالبة عليها والتى يمكن لنا أن نسميها بالتمثل . وقد ظهرت هذه الصفة عندما نظرت إلى الأشياء الخارجة لا على أنها أحداث منفصلة وإنما على أنها رموز تمثل مخاوفها من الدار الآخرة . أنظر إليها تقول : ما رأيت ثلجاً إلا تذكرت به تطاير الصحف . ولا جرادا إلا ذكرت به الحشر ، ولا سمعت أذانا إلا تذكرت به منادى يوم القيامة فهى تنظر إلى الأشياء على أنها دلائل لعذاب يوم القيامة الشديد فالثلج يذكرها بتطاير الصحف والجراد بالحشر والأذان بمنادى يوم القيامة . وهذا التمثل ينتج من حساسية جمالية رقيقة يجعلها تصفو بنفسها وتعلو بها من نطاقه المحسوس إلى مراكز الجمال والجلال .

هذا التمثل للأشياء ولد عندها حساسية جمالية جعلها تستغرق فى تأملها والنظر إليها فهى ترى الجن بصفاء بصيرتها والحور العين يستترن منها وكان زوجها إذا دعاها لا تجيبه حتى إذا ارتشفت من الجمال عادت إليه تقول : إنما منعنى أن أجيبك أن قلبى قد كان امتلأ فرحا بالله عز وجل فلم أقدر أن أجيبك ، وقد غلب عليها هذا التمثل حتى فى النظر إلى زوجها فلم يكن زوجها فى نظرها زوجا يستدعى عوامل الإثارة والشهوة إنما كانت تنظر إليه على أنه أخ من أخواتها فكانت تقول له : لست أحبك حب الأزواج وإنما أحبك حب الأخوان وإنما رغبت فيك رغبة فى خدمتك وإنما أحب وأتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل إخوانى ، وكانت ترى أنها لا تفعل إلا بأمر فإذا قال لها زوجها : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه فما رأينا من يقوم من أول الليل قالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا إنما أقوم إذا نوديت » .

وهكذا نستطيع أن تحدد الصفة التى تميز رابعة بنت إسماعيل الشامية إلا وهى صفة التمثيل فإذا كانت رابعة العدوية تمتاز بالحب الذى أسلفنا تبيانه فإن رابعة الشامية طرقت بابا جديداً فى التصوف وهو باب النظر إلى الموجودات على أنها رموز ودلالات لموجودات خفية وتلك لعمرى صفة ستفعل فعلها فى تاريخ التصوف حيث

يصبح للصوفية رموزهم الخفية التي يعبرون عنها بالألفاظ الظاهرة والتي لا تدل في الحقيقة على مسمياتها المباشرة .

وليس معنى ذلك أن صفة التمثل لم تكن موجودة قبل رابعة بنت إسماعيل الشامية فهناك قصص تدل على وجود هذه الحالة عند الصحابة والتابعين : روى عن الربيع بن خيثم أنه كان يذهب إلى ابن مسعود رضى الله عنه فمر بحانوت حداد فرأى الحديدة المحماة في الكير فغشي عليه ولم يفق إلى الغد فلما أفاق سئل عن ذلك فقال تذكرت كون أهل النار في النار فهذه القصة وأمثالها تدل على وجود التمثل الذى استغرق قلوب الصوفية إلا أن التمثل عند رابعة بنت إسماعيل كان أظهر وأوضح وأبين وأفصح .

كما أن تمثلها يمتاز بأن حواسها لم تغب عنها ومن ثمة لم تسمه غيبة لأن الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه بل ربما يغيب عنه الإحساس بنفسه أيضا . ولم نسمه سكراً لأن السكر غيبة مضاف إليها وارد قوى كما لم نسمه « راموز العلو » لأنه يكاد يتصل بالذات الإلهية فقط دون التعلق بما هنالك من أشياء وقد رأينا أن رابعة كانت تستغرق في الجمال إلا أنها تحس من حولها وما حولها ولا تغيب عنه وهذا هو موضع الجدة عندها والطرافة في طريقتها مما جعل الكثيرين من الصوفية يذهبون إليها ليأخذوا عنها : حكى أبو نعيم عن سرى السقطى قال قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبى الحوارى المسجد فسلمت عليه وقلت : عظنى وأوجز فقال : « ما أحسن ولكن سر إلى المنزل ففيه من يحسن قال : فخرجت أطلب منزله وإذا براهب كبير خلفه صغير فقلت للصغير لم تتبع هذا ؟ فقال : لأنه طبيبى يسقنى الدواء قال فورد على قلبى من كلامه شيء لا أعقله فجئت إلى منزل أحمد فطرقت الباب فكلمتنى امرأة من وراء حجاب فذكرت لها قول الراهب قال فقالت « ياليت شعرى أى دواء يسقيه : دواء الإقامة أم دواء الراحة ؟ » فقلت : بيني ما تقولين فقالت أما دواء الإقامة فالكف عن محارم الله تعالى وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى . قال سرى : فوالله ما خرج كلامها من قلبى أبدا .

وهذه القصة الصغيرة تشير إلى تلك اللغة الرمزية التي وصلت إليها رابعة بنت إسماعيل والتي وجدت عند رابعة العدوية عندما جعلت الحب : حب هوى وحبا لذات

الحب والتى سوف تتسع دائرتها بعد ذلك حتى تصبح لغة مستقلة يتداولها الصوفية فى كتبهم ويضعون لها المعاجم المفسرة حتى تكون العبارة إشارة لذلك الجانب الذى يسمو عن المحسوس .

وقد توفيت رحمها الله سنة خمس وثلاثين ومائتين كما يقول المناوى وأجمع عليه مؤرخوها خلا الجوزى صاحب مرآة الزمان الذى رأى أنها توفيت قبل زوجها أحمد فى سنة تسع وعشرين ومائتين .

ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس رحمة الله عليها ؟